أما الحركة الأدبية ، فقد كان الشعر الجاهلي فيها راقياً من غير شك ، وسلطانه على الشعراء وغير الشعراء جميعاً على مر العصور أمر معروف[1] . ثم الخطابة . . كانت الخطابة أيضاً راقية فى الجاهلية ، ولكنها لم تكن مكتملة شاملة ، لأن موضوعاتها لم تكن تتعدى ما تحتاجه البيئة وما تستدعيه المواقف والظروف . ولكن العصر الجاهلي فيما يخص الخطابة لم يكن أرقى العصور ، فقد قطعت الخطابه شوطاً أبعد فى عصر صدر الإسلام ، ثم كان العصر الأموى بعد هذا عصرها الذهبي . أما الحكماء ، فلدينا شيء عما كان لهم من حكم وما أذاعوه من أمثال وما دار حولها من قصص وشيء قليل مما صدر عن الكهان من سجع . ثم يأتى بعد ذلك كله دور الرسائل الفنية ، وهنا يعوزنا الدليل ، ونجد أنفسنا مضطرين إلى أن نردها إلى الحجم الذى ينبغى أن تتحرك فيه ، وهو حجم ضئيل جداً بحيث لا نستطيع أن نقول إن العرب عرفوا الرسالة الفنية ، والدلائل كلها تشير إلى أنهم لم يعرفوا ذلك على نحو ما سنرى ، كما أشارت من قبل إلى غير ذلك من أشياء . والذى يرجع إلى الجاحظ — وهو مصدر أصيل فيما يخص الجاهليين من ألوان البيان — يراه يقول :

« بعث الله محمداً ﷺ أكثر ما كانت العرب شاعراً وخطيباً . وأحكم ما كانت لغة وأشد ما كانت عدة ، فدعا أقصاها وأدناها إلى توحيد الله وتصديق رسالته . . ويقول .. وهو فى ذلك يحتج عليهم بالقرآن ويدعوهم صباحاً ومساء إلى أن يعارضوه إن كان كاذباً بسورة واحدة . . ويقول فلم يرم ذاك خطيب ولا طمع فيه شاعر ، ولو طمع فيه لتكلفه ، ولو تكلفه لظهر ذلك ، ولو ظهر

---

(١) يقول ابن سلام : « كان الشعر فى الجاهلية ديوان علمهم . ومنتهى حكمهم. به يأخذون . وإليه يصيرون » كما ينسب ابن سلام إلى عمر بن الخطاب قوله : كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه » . (طبقات فحول الشعراء — ص ٢٢) .